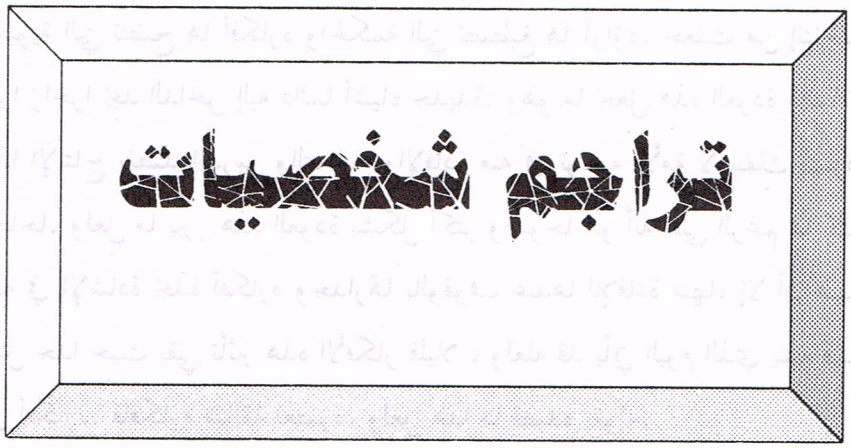
تراجم شخصيات

من معالم التجديد الإسلامي عند محمد إقبال.

د.كمال جحيش

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية -قسنطينة

محمد إقبال أبرز شعراء الإسلام وأشهر فلاسفة المسلمين في العصر الحديث، ومع العناية التي لقيها إنتاجه في الشعر والنثر، سواء في الشرق أو في الغرب، إلا أن الحيوية التي تنضح بها أفكاره والحكمة التي تصطبغ بها آراؤه، جعلت من إنتاجه بحرا زاخرا يجد الداخل إليه دائما أشياء جديدة، وهو ما يجعل هذه العودة دائما إلى هذا الإنتاج بقصد الدرس والتحليل والإفادة منه في توجيه الأمة لا ينفك يزداد إلحاحا، ولعل ما يبرر هذه العودة بشكل أكثر وضوحا هو أنه على الرغم مما كتب عنه في الإشادة بجدة أفكاره وجدارتها بالوقوف عندها للإفادة منها، إلا أن هذا قليل جدا حيث بقي تأثير هذه الأفكار قليلا ، ولعله قد يأتي اليوم الذي ينتبه فيه إلى أفكاره، فأفكاره سابقة لعصره، ولعل هذا ما قصده بقوله:

❀ أنا لحن دون ضر 311 أنا صوت شاعري يأتي غدا

دون عصري كل سر قد خفي ما بهذا السوق يشرى يوسفي

أنا في يأس من الصحب القديم مشعل طوري ليغشاه كليم[1]

وعملا من أجل هذا الهدف المتمثل في التعريف بمحمد إقبال، وتقديمه إلى القارئ، رأيت التركيز على بعض النقط المحورية في عمله التجديدي، بعض هذه النقط داخلة في أساس دعوته إلى التجديد، وبعضها الآخر مازالت الأسئلة تطرح بشأنه، وقبل ذلك كله رأيت من الأنسب تقديم نبذة عن حياته.

أولا: **لمحة عن حياة محمد إقبال:** ولد محمد إقبال على الأرجح يوم 09 نوفمبر 1877م، نشأ في أسرة شديدة الورع إلى درجة أن أمه لم تكن تأكل من مال زوجها لأنه كان يعمل مع رجل عرف بأكله الرشوة، وكان لأبيه دور بارز في تربيته، وإقبال يحكي موقفا مؤثرا في ديوانه" رموز نفي الذات" ، حين ضرب سائلا ضربة أسقطت ما جمعه ، ولما رأى والده هذا الموقف علت الآهات من فمه[2]، ثم انبرى يوصيه بوصايا قل نظيرها في عالم الأدب.

كان تعليمه الأولي في البيت على يد والديه، ثم شقيقه الأكبر "محمد عطا" ثم مير حسن الذي كان يلقب بشمس العلماء، والشاعر ميرزا داغ ، حفظ إقبال القرآن أو بعضه وهو صغير، وتدرج في التعليم إلى أن لقي السير " توماس أرنولد" فشجعه على السفر إلى أوربا لمزيد من التحصيل، فسافر سنة 1905،ثم عاد سنة 1908 ، وأمضى حياته في قرظ الشعر لاستنهاض الأمة، وهو أثناء ذلك كان يمارس المحاماة متحررا من الوظيفة ليتسنى له قول ما يشاء، واستمر في المحاماة إلى أن تركها سنة 1934، توفي في 1938/4/21م وترك عدة دواوين شعرية، إضافة إلى كتب نثرية[3].

1- **الذات: مظاهر الضعف و أسباب القوة:** " الذات " أو " الذاتية " هي المحور الذي دار حوله فكر محمد إقبال التجديدي، ورحلة محمد إقبال في اكتشاف هذه القضية طويلة وشاقة، مر فيها بالتراث الإسلامي الخصب فعايش فلاسفة المسلمين في فلسفتهم والصوفية في تصوفهم ، كما مر فيها بأنساق فلسفية كثيرة، حيث قدر له أن يدرس في إنجلترا مهد الفلسفة التجريبية، فتعرف على هذه الفلسفة عن قرب،كما قدر له أن يحتك في ألمانيا بالفلسفة المثالية، وفي خلال هذه الرحلة

اكتشف هذا الشيء الذي أطلق عليه "الذاتية"، وأرجع إليه كل مظاهر الضعف، وجعل السبيل إلى تجاوز هذا الضعف هو تقوية هذه الذات.

أ- **مظاهر ضعف الذات:** تناول محمد إقبال مظاهر الضعف التي عليها ذات المسلم في العهود المتأخرة في شيء غير يسير من شعره، بل يمكن القول إن شعره كله حديث عن" الذاتية" بصورة مباشرة أو غير مباشرة، و لم يكن حديثه عن الذاتية محصورا في شعره فقط، بل إن كتاباته النثرية وخاصة كتابه المحاضرات الست، أو تجديد التفكير الديني في الإسلام، لا يخلو من حديث مطول عن الذات، ويمكن إجمال مظاهر الضعف التي عليها ذات المسلم فيما يلي:

- الخوف: الخوف أحد المظاهر التي رآها إقبال معبرة عن الضعف العارم الذي أصاب الذات ذلك لأن الذات القوية لا تعرف للخوف سبيلا، والخوف الذي يقصده إقبال ليس هو الخوف من الله، فهذا الأخير سبيل إلى القوة، بل إنه يقصد الخوف من العدو، والخوف من الموت، والخوف على الرزق، بل قل : خوف من كل شيء إلا من الله وعلى كل شيء إلا على الإيمان، يقول في هذا الشأن:

❁عيناه خاليتان من النور والسرور
ليس في صدره قلب قلق
فليكن الله في عون هذه الأمة
فسبب موتها أنها روح بلا حضور.[4]

❁ ولد مسلما وليس محرما لأسرار الموت
يرتعش خوفا من الموت حتى لحظة الموت

لا أرى القلب في صدره الممزق

فنفسه متقطع بين الوجود وغم الموت[5]

– فقدان الأمل: فلسفة إقبال كلها مبنية على الأمل، يلحظ هذا كل من يتتبع أفكاره التي بثها في شعره ونثره، وهذا هو السبب الذي جعله يرى في فقدان الأمل علامة على ضعف الذات وذبولها، وهو لا يجد مسوغا لذلك، بل إنه يتعجب من فاقدي الأمل، وفي هذا الشأن يقول:

❁ جيبه ممزق ويعيش دون أن يفكر في الرفاه

لا أعرف كيف عاش هكذا بلا أمل

ذلك المسلم الذي عاش بغير " الله هو"[6]

ليس من نصيبه سوى الموت الناقص[7]

وبسبب فقد الأمل أصبح فقيرا يستجدي قوته، لا يقدر على رفع هامته، بل دائما يمشي مطأطئ الرأس لثقل المنة، منة غيره عليه:

❁لا تسلني عن أحواله كيف هي؟

فأرضه ساء طبعها كسمائه

صعب على الطائر الذي تربيه على التبن

أن يبحث عن الحب في الصحراء[8].

ونتيجة لذلك ذهبت عزته، كما ذهبت ثقته بنفسه

❁المسلم خجل لأن رأسه عار عن القلنسوة[9]

دينه مات وانتهى فالخانقاه هي فقره

أتعلم أي ميراث لنا في الدنيا؟.

إنه رداء الصوفي المنسوج من القماش الملكي[10]

هذه بعض المظاهر التي تنتاب ذات الإنسان المسلم ذكرت هنا ليس على سبيل الحصر، وإنما للإشارة إلى طريقة إقبال في التنبيه عليها لا غير، ذلك لأن تتبع هذه المظاهر ليس أمرا يسيرا لأن كل رباعية من رباعياته تنبيه بطريقة ما إلى هـذه المظاهر.

ب- **عوامل الضعف:** تناول إقبال عوامل ضعف الشعور بـ"الذاتية" بطرق شتى وفي مواضع مختلفة، سواء بالشعر أو بالنثر، ذلك لأن هذه القضية هي القضية المحورية عنده، ويمكن إجمال أسباب الضعف كما يراها فيما يأتي:

- **التصوف الفارسي:** ويسميه أيضا " التصوف العجمي" ويعبر به إقبال عن ذلك التوجه الذي ظهر في الأوساط الصوفية في العهود المتأخرة، هذا التوجه يدعو في مجمله إلى ترك العمل و إلى اعتزال الحياة، لأنها لا تستحق الاهتمام، حيث أصبحت غاية الصوفي في هذه المرحلة هي الوصول إلى الفناء، وإلى السكر، بينما دين الإسلام يدعو إلى البقاء، وإلى الصحو وأبرز نظرية تم الترويج لها في هذا المضمار هي نظرية وحدة الوجود، ويلحظ محمد إقبال باستغراب ذلك التشابه العجيب في تاريخ الفكر الإسلامي والهندي الذي يظهر في الفكرة التي فُسِّر بها كتاب" الجيتا" التي هي نفسها التي فسر بها ابن عربي القرآن الكريم، وكان له أثر بليغ في عقول المسلمين وقلوبهم، حيث جعل ابن عربي بعلمه ومكانته مسألة وحدة

الوجود عنصرا في الفكر الإسلامي ، واقتفى أثره أوحد الدين الكرماني وفخر الدين العراقي حتى اصطبغ بهذه الصبغة كل شعراء العجم في القرن السادس الهجري[11] . وإقبال يحمل هذا اللون من التصوف المسؤولية في إماتة ذات المسلم وكبحها عن العمل والجهاد، فالتصوف العجمي يظهر الجمال والرقة والحسن في الأدب إلا أنه يخدر النفوس ويذل طبائع الناس ، وعلى عكس هذا يكون التصوف الإسلامي الذي يظهر القوة في القلوب، وتترك هذه القوة أثرها على الأدب[12]. وإقبال إذ يحذر من هذا اللون من التصوف، فإنه لا يكتفي بالتحذير المجمل، بل إنه يخص بعض الشخصيات الصوفية بالذكر محذرا منها، ومن هؤلاء الذين يحذر منهم؛ حافظ الشيرازي[13]، حيث يقول: "احذر حافظا أسير الصهباء، فإن في كأسه سم الفناء...فر من كأسه فإن فيها لأهل الفطن خدرا كحشيش أصحاب الحسن"[14] .

والتصوف الإسلامي عند إقبال لم يكن سبب انحرافه بتأثير من الفلسفة الهندية وحسب، بل إن هناك رافدا آخر ساهم في ذلك وهو الفلسفة اليونانية ممثلة في فلسفة أفلاطون، حيث كان اعتراض إقبال عليه بسبب إغفاله المادة وهذا الاعتراض "هو في أصله اعتراض على كل النظم الفلسفية التي تقصد إلى الفناء لا البقاء والتي تغفل المادة، وهي أكبر العقبات في سبيل الحياة، وتدعو إلى الفرار منها لا إلى تسخيرها والتسلط عليها"[15]. كما عبر إقبال عن هذه الفكرة شعرا فقال:

❁راهب الماضين أفلاط الحكيم من فريق الضأن في العهد القديم

طرفه في ظلمة المعقول ضل في حزون الكون قد أعيا وكل

فكره في غير محسوس فُتِن صد عن كف وعين وأذن

قال: في الموت بدا سر الحياة في خمود الشمع يزداد سناه

حكمه في فكرنا جد عظيم يمـــــحق الدنيا له جـــامٌ مُنيم

هو شاة في لباس الآدمي وهو في الصـــوفي ذو بأس قوي

عالم الأشياء سماه الهراء وعلت أفكاره فوق الســـــــماء

بهذه الصورة تظافرت ثقافات أجنبية وافدة وغذت تيارا صوفيا في العالم الإسلامي بدت بوادر عزلته للحياة في وقت مبكر، وبذلك توقفت الدفعة الحيوية التي أوجدها الإسلام في نفوس أتباعه، على أنه ينبغي الإشارة إلى أن إقبالا يحمـــل مسؤولية إيقاف هذه الدفعة الحيوية إلى قطاعات أخرى من الثقافـــة الإســـلامية، وتتمثل في علم الكلام بصورته التي ظهرت عند المعتزلة، فهؤلاء قصروا إدراكهـــم للدين على أنه مجموعة من العقائد، متجاهلين أنه حقيقة حيوية ... وأرجعوا الدين إلى نسق من المعاني المنطقية وهو ما انتهى إلى موقف سلبي بحت[16] .

وخط الأشعرية لا يختلف عن خط المعتزلة، إذ لم يكن همهم أكثـــر مـــن جعل الطريقة المنطقية تتولى الدفاع عن سيادة الوحي الإلهي[17] .

وكذلك فعل فلاسفة الإسلام الذين يسميهم إقبال " تلامذة أرســـطو"[18] فهم حسب رأيه لم يكونوا سوى أتباع لفلاسفة اليونان ذلك أنهم حين نظروا إلى قواعد الدين وجدوها تعارض ما عرفوه عن الفلسفة اليونانية، وعند ذاك راحـــوا يجتهدون في التوفيق بينهما، فانشغلوا بدفع التعارض بين العقل والنقـــل أو بـــين الحكمة والشريعة حسب زعمهم، وهم في واقع الحال إنما يوفقون بين الفلســـفة اليونانية وبين مبادئ الإسلام، وغاب عنهم أن هـــذه الفلســـفة تعـــارض روح

القرآن[19]، وأهم جوانب تعارضها مع القرآن هي ابتعادها عن التجربة وإعلاؤها من قيمة التجريد على حساب التجريب الذي يعد أهم ما ميز دعوة القرآن الكريم.

ت- أسباب القوة: بعد أن يبين إقبال أسباب الضعف الذي يمكن أن يصيب ذات المسلم، يبين لنا أيضا أسباب القوة، وهي عنده تتمثل في إحكام الذات بالعشق ومحبة الله عز وجل، ولتزام شرعه وعدم التضجر من هذه الأحكام مع السعي في تسخير قوى العالم، ولإقبال شعر طويل في الدعوة إلى هذا التسخير ضمنه ديوانيه الأسرار والرموز[20]

2- التصوف: من السلبية إلى الإيجابية

تبين فيما سبق أن إقبالا يحمِّل التصوف القسط الأوفر من المسؤولية على ما أصاب الأمة من ضعف، بسبب دعوته إلى إماتة قوى الذات وإفنائها، لكنه في المقابل لا يقطع خيط الرجاء في إصلاح حال التصوف وتخليصه من الرواسب الأجنبية التي جعلته ينحرف عن طبيعته الإسلامية، وصيرته أعجميا فارسيا، من هنا أعاد النظر في التراث الصوفي، وأعاد تقييمه من جديد، وهو نفسه كان في بدية حياته يميل إلى التصوف حيث يقول" إني بفطرتي وتربيتي أنزع إلى التصوف ، وقد زادتني فلسفة أوربا نزوعا إليه . فإن هذه الفلسفة في جملتها تنزع إلى وحدة الوجود، ولكن تدبر الكتاب المجيد، ومطالعة تاريخ الإسلام بإمعان عرَّفاني غلطتي، وبالقرآن عدلت أفكاري الأولى، وجاهدت ميلي الفطري. وحدت عن طريقة آبائي"[21] .

أعاد إقبال قراءة التراث الصوفي في ضوء القرآن الكريم، تمكن بعد هذه القراءة من إعادة تصنيف هذا التراث، واكتشف أن هذا التراث لا يشير إلى

تصوف واحد، بل إلى لونين كبيرين من التصوف تصوف عجمي، وتصوف إسلامي، والتصوف العجمي قائم على الرهبنة، وهي رهبنة ظهرت في كل أمة، وكانت في ظهورها تحاول مواجهة قانون الشريعة، هادفة الإقلال من أثر القانون، والإسلام يرفع صوت الاحتجاج ضد هذه الرهبانية[22]، وهو تصوف قائم على الفناء في ذات الحق وليس في أحكام الحق، وهو أيضا تصوف خطير جدا يحطم الدين والأخلاق كلية، إنه تصوف مستمد من رهبانية هندية، ومشرب بآثار أفلاطونية، تصوف يقود في نهاية الأمر إلى جعل الحياة حلما، ويعلم الهروب من حقائق الحياة[23]، ومما زاد من خطورة هذا التصوف أنه عمد إلى لغة الشعر ليزيد من تأثيره في النفوس، فأظهر الجمال والرقة والحسن في الأدب، إلا أنه خدر النفوس وأذل الطبائع[24]. وإقبال يقدم نماذج عدة للشعراء الصوفية الذين سلكوا هذا المسلك ومثل لهم خاصة بـ" حافظ الشيرازي " الذي سبقت الإشارة إليه، كما قدم نماذج لصوفية وحدة الوجود، ويذكر منهم "محي الدين بن عربي" ويعلن مخالفته له في قوله بوحدة الوجود، يقول في شأنه" ولا أنكر عظمة الشيخ ابن عربي وفضله، بل أعده من كبار فلاسفة المسلمين، ولا أرتاب في إسلامه، فإنه يحتج لعقائده، كقوم الأرواح ووحدة الوجود، بالقرآن مخلصا، فآراؤه على صوابها وغلطها قائمة على تأويل القرآن. وأرى أن تأويله غير صحيح . فأنا أعده مسلما مخلصا ولا أتبعه في مذهبه"[25].

وأما التصوف الإسلامي الحق فهو تصوف يقوم على نفي الذات، لكن نفي الذات في التصوف الإسلامي "يعني ترك الرغبات والشهوات والأفكار الشخصية الذاتية، والتمسك بأحكام الله عز وجل"[26]، هو تصوف لا يهدف إلى

التحلل من أحكام الشرع شأن الرهبنة الغربية عن الإسلام، بل يدعو إلى الانقياد لشرع الله وعدم التضجر من أحكامه، كما أنه تصوف يدعو إلى الأمل وإلى تقوية الذات بالله عز وجل، ويدعو إلى التوتر الدائم لا إلى الخنوع والذلة ويدعو إلى الصحو لا إلى السكر، فحالة الصحو هي التي توافق الإسلام، ومحمد عليه الصلاة والسلام إنما قصد إنشاء أمة صاحية، ولهذا نجد في صحابة الرسول الصديق والفاروق ولا نجد حافظا الشيرازي[27] ، على أن إقبالا لا يفتأ يذكر – سواء في كتاباته الشعرية أو النثرية – أن الذي نبهه إلى هذا بعد القرآن الكريم هو "جلال الدين الرومي "[28]، وهو كثير الاستشهاد به، بل وأكثر من ذلك جعله مرشده الروحي، ودليله في مرحلة من مراحل عروجه الروحي الذي بسطه في منظومته" جاويد نامه" أو الكتاب الخالد، فللرومي عند إقبال منزلة جليلة، حيث جعله أكبر داعية للعشق الإلهي من الصوفية، ورمزا لإثبات الذات ونفيها،وهو يصدر ديوانه رموز نفي الذات ببيت للرومي يقول فيه:

جِد بنفي الذات ذاتا لا تهاب واجتهد والله يهديك الصواب[29]

واعتبر ديوان المثنوي تفسير للقرآن الكريم أو قل نقل للقرآن إلى اللغة الفارسية، ومما قاله في فضله عليه:

صير الرومي طيني جوهرا من غباري شاد كونا آخرا[30]

كما قال فيه أيضا:

لاح شيخ الحق ذاك الألمعي من حكى قرآننا بالفهلوي[31].

وإقبال يجعل الرومي ممثلا للتصوف الداعي إلى الحياة ويرى فيه الصوفي الجامع للشريعة والحقيقة في انسجام وتناغم قل نظيرهما في تاريخ التصوف.

3- **التجربتان الدينية والعلمية:** من التعارض إلى التكامل.

لاحظ إقبال ذلك التعارض الذي أوجدته الثقافات القديمة حين ظهرت مجددا في البيئة الإسلامية بين روح القرآن الداعية إلى مكابدة التجربة في العالم الطبيعي، وروح هذه الثقافات الداعية في مجملها إلى تغليب النظر على العمل، والفناء على البقاء، لكن روح القرآن الكريم استطاعت التغلب على هذه الوجهة في الحياة، وأعطت المسلمين دفعة حيوية لم تعرفها الثقافات القديمة، فكانت ثمارها يانعة في شتى حقول المعرفة، ولعل أبرز ما أبدعه المسلون هو المنهج العلمي القائم على التجربة، لكن عوامل مختلفة تظافرت لتبعد المسلمين عن ثمار ما أبدعوه منهجا ليتم تلقف هذا المنهج من علماء الغرب، لكنهم جردوا هذا المنهج من خلفيته العقدية الإسلامية ليعيدوا تسويقه من جديد في صورة منهج جديد ينابذ الدين ويقف منه موقف النقيض، حتى أصبح من السهل القبول بمقولة التعارض، بين التجربتين الدينية والعلمية، أو قل بين العلم والدين دون أن تجد رفضا صريحا إلا بصوت خافت.

إن هذا التعارض الموهوم ترك آثارا سيئة على وضع الأمة الإسلامية في العهود المتأخرة، حين جعل قطاعا واسعا يقنع بمقولات تلبس رداء الصوفي مؤداها أن التجربة الدينية المتمثلة في التصوف تقف موقف النقيض من التجربة العلمية الواقعية. وعلى النقيض من ذلك ما شاع في الثقافة الغربية الحديثة، من القول بمجافاة التجربة العلمية لأي صورة من صور التجربة الدينية، إذ التعارض بينهما

قائم ولا مجال للحديث عن أي نوع من التلاقي، والموقفان كلاهما يحتاجان إلى إعادة نظر، ذلك أن التجربة الدينية لا يمكن بحال من الأحوال رفض كونها واحدة من ضروب التجربة الإنسانية، فالتجربة الدينية ليست وهما، والمؤلفات الصوفية الكثيرة تدل على ذلك[32]، وقيمة هذه التجربة تكمن في كونها يمكن أن توصلنا إلى لون من الحقيقة لا يمكن اقتناصه بأي ضرب من ضروب التجربة الإنسانية الأخرى، فهي توصلنا إلى الحقيقة النهائية عن طريق الاتحاد بها عندما تتجلى داخل النفس[33] ، فتقوم بربط الإنسان بالحقيقة القصوى عن طريق التأمل الباطني.

والتقدير الذي تحظى به التجربة الدينية يجب ألا يكون على حساب التجربة العلمية، فهي أيضا ضرب من ضروب تحصيل الحقيقة، والقرآن الكريم جعل الأخذ بهذه التجربة عملا تعبديا مطلوبا من الناحية الشرعية[34]، على أن هذه التجربة وإن كان يشوبها بعض القصور لكونها مجموعة من النظرات الجزئية للحقيقة ، فإن ذلك يعود إلى أن العلوم الطبيعية المختلفة مثلها مثل الجوارح العديدة تنقض على جسم الطبيعة الميت، فيذهب كل منها بقطعة منه، فهذه العلوم جزئية بطبيعتها، فإذا كان لها أن تظل أمينة لطبيعتها ووظيفتها، فإنها لا تستطيع أن تقيم نظرها على اعتبار أنها رأي كامل عن الحقيقة[35] ، هذا هو حال التجربة العلمية، فهي تجربة جزئية بطبيعتها، وإدراكها للحقيقة هو إدراك جزئي، ولا يمكنها تجاوز هذه الجزئية، لكن هذا لا ينقص من قيمتها، فكونها مرتبطة بالواقع الطبيعي المحسوس جعلها كذلك.

فالتجربتان الدينية والعلمية كلتاهما طريقان للوصول إلى الحقيقة، لكن التجربة الدينية تدرك الحقيقة إدراكا كليا دون أن تعمد إلى تجزئتها، بل وليس من

طبيعتها فعل ذلك، وبالمقابل نجد التجربة العلمية تدرك الحقيقة جزءا جـــزءا، ولا يمكنها أن تدركه جملة لأن ذلك ليس من طبيعتها أيضا، وعلى ذلـــك فـــاختلاف التجربتين من حيث طبيعتهما لا يدفعنا إلى قبول إحداهما وطرح الأخرى، بـــل إن الأخذ بهما معا أمر ضروري، فهما متكاملتان وليسا متعارضتين، وأمـــا الـــرفض المتبادل بين ضربي التجربة، وخاصة الرفض الصادر من أصحاب التجربة العلميـــة، هذا الرفض ليس له ما يبرره لاختلاف ميدان التجربة لدى كليهما.

4- **نحن والحضارة الغربية:** من التقليـــد الأعمـــى إلى الاســـتيعاب والتجاوز: عاش محمد إقبال في الغرب وعرفه عن قرب، ودرس فلسفته بمختلـــف شعبها وبرع فيها، لكن هذه الحضارة لم تستول عليه كما استولت على كـــثيرين غيره ممن كان الغرب وجهتهم في الطلب، بحيث استطاع أن يحصل فلسفة الغرب دون أن يقع في شراكها و أن يأخذ الحب ويفلت من شبكة الصـــياد، ولإقبـــال وقفات كثيرة مع هذه الحضارة، تارة في وصفها، وتارة في التنبيه والتحـــذير مـــن خطورتها على الإنسانية، يقول في هذا الشأن:"ها قد سقطت أوربا وهوت صريعة سفها، مترنحة منذ رسمت طريق الإلحاد واللادينية تحت القبة الزرقـــاء، ولبســـت الذئاب ثياب الحملان ، لتكمن بينها وتنقض عليها لتصيدها وتقتنصها، إن جميـــع مشاكل البشرية إنما هبت على العالم من أوربا مصدر المحنة .... ما هي معـــارف الإفرنجة ؟ حمل الأسلحة على الأكتاف لإبادة البشرية ، وبذل الجهود المضنية لإفناء نوع الإنسان، إن الدنيا لا تخلو من نشوة العلم والفن ، ولكن ويل لها من الغرب ومن علومه، وويل للإنسانية من فنونه وقوانينه، وويل لها من تأملا ته الجهنميـــة وأفكاره الإلحادية"[36]، والحضارة الغربية في نظر إقبال سوف تقضي على نفســـها

بنفسها " إنها حضارة شابة بحداثة سنها والحيوية الكامنة فيها، ولكنها محتضرة تعاني سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها، ولا غرابة في ذلك، فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار"[37] ، وسبب ضعف هذه الحضارة هو معاداتها للقلب وقتلها للروح، حيث إن وجهها قوي ناضر وقلبها مظلم فاجر، وحضارة تعادي القلب ليست جديرة بالبقاء، ومع هذا النقد اللاذع لحضارة الغرب نجد إقبال يبين أن حضارة الغرب قائمة على المهارة التي هي بضاعة الحياة ، أما في الشرق فالعشق هو سر الكون[38]، وليس هناك تعارض بين العشق والمهارة، حيث يمكن أن يجتمعا " فالمهارة تصير عارفة بالله من خلال العشق، وتتوطد أركان العشق بالمهارة"[39] والمسلم هو الوحيد الذي يطلب منه أن يقوم ليضع التصميم لعالم جديد تمتزج فيه المهارة بالعشق، وهو إذ يسعى في ذلك عليه ألا يقلد الغرب، يقول في هذا الشأن: " لا تبحث عن السكر من كرمهم فليس في أفلاكهم عصر جديد"[40]. وتحذير إقبال لمسلمين من حضارة الغرب لا يعني سحب ذلك على الناحية العلمية، وعلى العلم التجريبي بالخصوص، لأنه يرى أن العلم التجريبي الذي ازدهر في الغرب ما هو إلا تطور لجانب من جوانب الثقافة الإسلامية، أخذه الغرب واقتبسه وجرده من الدين الإسلامي ومن الأخلاق الإسلامية، ليبدو في صورة العلم الملحد، بينما هو في أصله وفي حقيقته علم مؤمن، ما كان ليبرز لولا عقيدة ختم النبوة، ولولا روح القرآن الداعية إلى التجريب، ومن ثم لا مبرر للخوف منه، بل إن الأخذ به هو بمثابة استعادة منهج غطت عليه قرون من التخلف. لكن الأخذ بهذا العلم يكون بالخلق الإسلامي، وبمحبة الحقيقة التي يدعو غليها الإسلام.

هذه بعض معالم التجديد عند إقبال رأيت الوقوف عندها لما لها من موقع ومكانة في مجهوده التجديدي، وهي معالم تشير إلى عمق في الطرح، وإلى إدراك عميق لجوهر المشكلة التي يحياها المسلمون، وإلى صعوبة الوقوف على الإجابات المطمئنة على الأسئلة المطروحة، وأهمها وأولاها: سؤال النهضة كيف السبيل إليها.

الهوامش:

(1) محمد إقبال، الأسرار والرموز. ترجمة: عبد الوهاب عزام ، دار المعارف ، القاهرة 1955ص 6

(2) ن م ص 118

(3) ترك إقبال تراثا كبيرا في الشعر والنثر ، ويمكن حصره فيما يأتي:

1-الشعر:

أ-الدواوين المنظومة باللغة الأوردية:

-بانك درا (صلصلة الجرس) 1924.

-مسافر 1934.

-بال جبريل (جناح جبريل) 1935.

-ضرب كليم (شريعة موسى) 1937.

ب-الدواوين المنظومة باللغة الفارسية:

-أسرار خودي (أسرار الذات) 1915 (على القافية المزدوجة- المثنوي)

-رموز بيخودي (أسرار نفي الذات) 1918. (على القافية المزدوجة- المثنوي)

-بيام مشرق (رسالة المشرق) 1923.

-زبور عجم (أناشيد فارسية) 1929

-جاويد نامه (رسالة الخلود) 1932.

-بس جه بايد كرد أي أقوام مشرق. (ماذا يجب أن نعمل يا أمم الشرق) 1936.

-سرود رفته (أنشودة الماضي) 1959.

ج-الدواوين المنظومة باللغة الأردية والفارسية:

-أرمغان حجاز (هدية الحجاز) 1938 (طبع بعد وفاته)

د-ترتيب كتابة الدواوين:

بانك درا- أسرار خودي- رموز بيخودي- بيام مشرق- زبور عجم- جاويد نامه- مسافر- بال جبريل ضرب كليم- بس چه باید کرد أي أقوام الشرق- أرمغان حجاز- سرود رفته- "طُبع الديوان بعد وفاته وضم الشعر الذي لم تضمه الدواوين السابقة).

-النشر:

-علم الاقتصاد (باللغة الأوردية) 1903.

-تطور الميتافيزيقا في بلاد فارس (رسالة الدكتوراه) 1908.

-تجديد التفكير الديني في الإسلام 1928

-رسائل إقبال إلى محمد علي جناح 1944 (طبع بعد وفاته)

-خطب إقبال وبياناته 1944 (طبع بعد وفاته)

-رسائل إقبال 1944 (طبع بعد وفاته)

(4)محمد إقبال، أرمغان حجاز. ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم.ط1 مالمكتبة العلمية، لاهور – باكستان 1396هـ/1976، ص 192

(5) محمد إقبال، أرمغان حجاز. ص 192

(6) يقصد بذلك التوحيد .

(7) المصدر السابق ص 191

(8) الصدر نفسه ص 193

(9) القلنسوة في شعر إقبال يرمز بها إلى عزة الذات

(10) المصدر نفسه ص 193

(11) محمد إقبال ، ديوان الأسرار والرموز، ترجمة : عبد الوهاب عزام ص13، 14

(12) إقبال، الأسرار والرموز، ترجمة عبد الوهاب عزام، دراسة وتحقيق: سمير عبد الحميد إبراهيم، ط2 دار الأنصار، القاهرة: 1981، ص19

(13) هو شمس الدين محمد بهاء الدين حافظ الشيرازي(ت: 791هـ/ 1389م)هو أكبر الشعراء الصوفية الفرس، كان يلقب بلسان الغيب

(14) عبد الوهاب عزام، إقبال سيرته وفلسفته وشعره، ص62

(15) إقبال، الأسرار والرموز. ص 18

(16) محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام ص10

(17) محمد إقبال، ما وراء الطبيعة في بلاد فارس، ترجمة حسين مجيب المصري، مكتبة الأنجلو المصرية ص 105

(18) محمد إقبال، ما وراء الطبيعة ، ص 121

(19) إقبال، تجديد التفكير الديني ص8

(20) الأسرار والرموز ترجمة عبد الوهاب عزام القاهرة: دار المعارف1955ص 129

(21) ن م ص11

(22) محمد إقبال. الأسرار والرموز. ترجمة: عبد الوهاب عزام. دراسة وتحقيق سمير عبد الحميد إبراهيم، ص21

(23) المصدر نفسه ص23

(24) ن م ص19

(25) الأسرار والرموز ترجمة عبد الوهاب عزام القاهرة: دار المعارف1955 ص 12

(26) محمد إقبال. الأسرار والرموز. ترجمة: عبد الوهاب عزام. دراسة وتحقيق سمير عبد الحميد إبراهيم، ص20

(27) إقبال الأسرار والرموز، ترجمة عبد الوهاب عزام، دار المعارف ، القاهرة 1955 ص 12

(28) أحد كبار الصوفية (604- 672هـ)، من أهم ما ترك : المثنوي

(29) إقبال الأسرار والرموز، ترجمة عبد الوهاب عزام، دار المعارف ، القاهرة 1955 ص 75

(30) ن م ص9

(31) ن م ص10

(32) إقبال، تجديد التفكير الديني ص 23

(33) إقبال تجديد التفكير الديني ص 22

(34) إقبال تجديد التفكير الديني ص106

(35) إقبال تجديد التفكير الديني ص52

(36) إقبال، ماذا نصنع يا أمم الشرق، تـــ: محمود أحمد غازي والصاوي شعلان ، ط1 دمشق، دار الفكر 1408هـــ/1988،ص 119،120.

(37) أبو الحسن الندوي، روائع إقبال، دار الشهاب، الجزائر ص 83

(38) محمد إقبال، رسالة الخلود . ترجمة وشرح وتحليل محمد السعيد جمال الدين، مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1974 ص 149

(39) ن م ص 149.

(40) ن م ص 149